وزارة الثقافة
العلاقات الثقافية الخارجية
Ministry of Culture
Foreign Cultural Relations

# حوار الثقافات الشعبية

تحرير وتقديم
د/ خالد أبوالليل

# في التأصيل للحوار بين العرب والغرب
# التاريخ والغايات والعوائق

د. عماد علي عبداللطيف
كلية الآداب، جامعة القاهرة

# في التأصيل للحوار بين العرب والغرب

## التاريخ والغايات والعوائق

**د. عماد علي عبداللطيف**

كلية الآداب، جامعة القاهرة

***الحوار بين الحضارات يفترض أن يكون كل طرف مقتنعًا بأن ثمة شيئًا يمكن أن يتعلمه من الطرف الآخر*** **روجيه جارودیه**

### *١. السياق التاريخي للحوار بين الحضارات*

'الحوار الحضاري أو الثقافي' هو "شكل من التفاعل بين القوى الاجتماعية، ووسيلة للتواصل أو لتجنب الصراعات وتلطيف المجابهات[١]". ويعد هذا المفهوم حديث عهد بالتداول في العالم المعاصر؛ إذ يذكر التويجري "أن جميع المواثيق والعهود الدولية التي صدرت في الخمسين سنة الأخيرة، بعد إنشاء منظمة الأمم المتحدة تخلو من الإشارة إلى لفظ الحوار[٢]". وعلى الرغم من غياب المصطلح فقد شهدت الإنسانية على مدار التاريخ مبادرات عديدة لصياغة العلاقة بين الشعوب والحضارات على أساس التعاون والحوار بدلا من التناحر والصراع؛ أي أن مفهوم الحوار بين الثقافات أو الحضارات كان مطروحًا بقوة عبر فترات تاريخية طويلة قبل أن يتم نحت المصطلح. غالبا ما كانت هذه المبادرات تصدر عن الأديان السماوية وعن المذاهب الفكرية والفلسفات العظيمة.

---

١- انظر مقال: Qurong, S., (2001). Dialogue among Civilizations: Implications for International Relations, Journal of the China Institute of Contemporary International Relations. المنشور على الرابط التالي:
http://www.uscc.gov/researchpapers/2000_2003/pdfs/dialo.pdf، ص ٢، تاريخ الدخول ٢٠٠٨/٠٦/١٤.

٢- انظر، التويجري، عبد العزيز. (١٩٩٨). الحوار من أجل التعايش. نشر دار الشروق. مصر. ص ١١.

فالقرآن الكريم يجعل التعارف بين الشعوب علة اختلافها[٣]. في حين يدعو الفيلسوف الصيني لاوتسو الدول والحضارات إلى التحاور والتواضع فيما بينها حتى تتأسس بينها الثقة[٤].

فيما مضى من عصور البشرية لم يكن الصراع بين الدول بوابةً للفناء التام. نعم كان يُقتَّل آلاف البشر، وتُباد قرى، وتُفرَّغ مدن من أهلها؛ لكن بذرة البشر لم تكن مهددة في أي وقت مضى بالاستئصال. لكن إنسان العصر الحالي الذي لم يقنع بالسيف ولا البندقية صنع بيديه من آلات القتل البلهاء ما يمكن أن يستأصل شأفته؛ ما لا يُبقي ولا يذر. فأصبح البشر مهددين جميعا دون استثناء. وبقدر عِظَم الخطر الذي يمكن أن يؤدي إليه الصراع، يكون عِظم الحاجة لإحلال الحوار محل الصراع. وإذا كان الفناء هو النهاية المحتومة لأي صراع كوني في هذا العصر، فإن الحوار يجب أن يكون سعيًا كونيًا معززا بكل الطاقة التي تولدها غريزة البقاء.

لقد أدرك الكثيرون ممن أرَّقهم تناحر البشر وتنازع الحضارات عِظَم الحاجة للمصالحة. وعلى مدار العقود الأخيرة طرح كثير من المفكرين ورجال الدين والسياسيين

---

٣- يقول تعالى؛ "وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا"، سورة الحجرات آية ١٣. وقد تتبع محمد السماك. جذور الحوار بين الإسلام والمسيحية، ورجع بها إلى عصر النبي محمد (ﷺ). انظر، السماك، محمد. (١٩٩٨). مقدمة إلى الحوار الإسلامي-المسيحي. دار النفائس، بيروت، ص ١٣-٢٢.

٤- يقول لاوتسو في الفصل الحادي والستين من كتاب "الطاو":

"على الممالك الكبرى ذات القوة والسيادة،

وبهاء الملك والسطوة والسلطان،

أن تتواضع حتى تُحاذي أدنى مقام،

بين البلدان؛..

فوقوف الممالك العظمى،

موقف التواضع إزاء البلدان الصغيرة،

برهان للثقة،..

فلذلك يصير ما بين الطرفين،

مساجلة في تباين الثقة؛". انظر، لاوتسو. كتاب الطاو. ترجمة محسن فرجاني، نشر المشروع القومي للترجمة، مصر، ط١، ٢٠٠٥.

دعوات ومشاريع لتجسير الفجوات بين البشر، وصياغة عالم يقوم على التعايش والتعاون. كان الحوار يطرح نفسه دومًا في هذه المشاريع والدعوات كأداة للوصول إلى هذا التعايش؛ إيمانًا بأن "إرادة الانخراط في الحوار لا يمكن أن تنفصل عن إرادة الحفاظ على السلام"[٥].

في أواخر سبعينيات القرن العشرين طرح روجيه جارودي دعوةً للحوار بين الحضارة الغربية من ناحية وبقية حضارات العالم من ناحية أخرى. كان ذلك في كتابه "في سبيل الحوار بين الحضارات" الذي دعا فيه الغرب للإفادة من التنوع الحضاري الهائل الذي تقدمه الحضارات الأخرى. وذلك بدلاً من نزعة التعالي الحضاري التي تفوّت إمكانية التعلم من ثقافات العالم الأخرى الغنية[٦]. ومن هذه الزاوية كانت فكرة الحوار تعني تبادل الخبرات والمعارف على أساس وحدة المعرفة البشرية مع تنوعها وتكاملها. كان الحوار يعني في جذره الحقيقي 'التعلم'؛ وكان الطرف المدعو للتعلم هو نفسه الذي دأب على القول إنه لا يوجد لدى الآخرين شيء يمكن أن يضيفوه إليه؛ أو لنقل يتعلمه.

في أوائل التسعينيات أعيد طرح الدعوة للحوار بين الحضارات في سياق تفنيد ومواجهة نظرية صمويل هنتنجتون حول صراع الحضارات. لقد ذهب هنتنجتون في مقاله المنشور في مجلة "شئون خارجية" Foreign Affairs في عام ١٩٩٣ بعنوان صدام الجضاراتThe Clash of Civilizations إلى أن صراعات المستقبل سوف تكون صراعًا بين الحضارات التي تختلف في أصولها الجوهرية وليس بين الكيانات

---

٥- انظر، كلمة المنجي بوسنينه ضمن: Proceedings of the International Symposium on Dialogue among Cultures and Civilizations، مرجع سابق، ص ٥٨. وكل النصوص المترجمة في هذا المقال قمت بها بنفسي ما لم أنص على غير ذلك.

٦- انظر، جارودي، روجيه. (١٩٧٧). في سبيل حوار الحضارات. ترجمة عادل العوا، نشر دار عويدات، لبنان، ط٤ - ١٩٩٩

الاقتصادية أو السياسية؛ أي صراع ثقافات، وليس مصالح أو إيديولوجيات أو اقتصادات[٧]. ورأى أن الحضارة الإسلامية أولاً والحضارة الصينية الكونفوشية ثانيًا سوف تكونان جبهات المعارك مع الغرب في المستقبل. وقد أعاد نشر هذه النظرية والترويج لها في كتاب صدر عام ١٩٩٦، وحمل نفس الاسم تقريبًا[٨].

لقد تعرضت نظرية هنتنجتون لتفنيدات متعددة من أفراد ومؤسسات ذوي خلفيات ثقافية وإيديولوجية مختلفة[٩]. واقترح عدد من الناشطين السياسيين تصورات بديلة لمستقبل العلاقة بين الحضارات تقوم على التعايش لا الصراع، والتحاور لا الصدام. وبرهنت هذه التصورات على أنه يمكن أن ينشأ نوع من التحاور والتعاون بين الحضارات المختلفة من خلال تدعيم المشترك فيما بينها من ناحية، وتقليل تأثير الاختلافات، والتعايش معها، وتفهمها من ناحية أخرى[١٠]. وتبلورت نظرية بديلة ترسم مستقبلا آخر للبشرية؛ دعائمه الحوار لا الصراع، وغايته التعايش لا الهيمنة، وأداته الفهم والتعاطف لا التحيز والتعصب.

بعد سنوات قلائل تحولت هذه النظرية إلى عمل مؤسساتي دولي، ففي ٢١ سبتمبر ١٩٩٨ ألقى الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي خطابًا في الجمعية العامة للأمم المتحدة دعا فيه إلى ضرورة تبني دول العالم للحوار بين الحضارات بوصفه بديلا حتميا للصراع بينها. وفي ٤ نوفمبر تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار

---

7- Huntington, S., The Clash of Civilizations? in"Foreign Affairs", vol. 72, no. 3, Summer 1993, pp. 22-49،p.23 .

٨- صدر الكتاب تحت عنوان: Huntington, S. (1996). The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order, New York, Simon & Schuster.

٩- قدم محمد عابد الجابري (١٩٩٧) نقدًا تفصيليا شاملا للمقال في كتابه "قضايا في الفكر المعاصر". مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١.

١٠- انظر على سبيل المثال: كارلسون، انجمار. (١٩٩٤). الإسلام وأوروبا: تعايش أم مجابهة؟ نشر صوت اسكندنافيا، استوكهولم، السويد.

رقم ٢٢/٥٣ الذي يجعل من عام ٢٠٠١ عاما للحوار بين الحضارات[١١]. وقد دعا القرار حكومات الدول والأمم المتحدة إلى تخطيط وتطبيق برامج ثقافية وتعليمية واجتماعية لتعزيز مفهوم الحوار بين الحضارات، ويشمل ذلك المؤتمرات والندوات وتوزيع المعلومات.

ومنذ ذلك الحين توالت الفعاليات السياسية والثقافية من لقاءات وندوات ومؤتمرات وإصدارات؛ تحاول جميعًا أن تُهيئ فضاءً للحوار بين الشعوب المختلفة، وأن تواجه طبول الحرب بنغمات الاتصال. وتأسست مراكز بحوث متخصصة في حوار الحضارات مثل مركز الثقافة العربية والحوار بالولايات المتحدة، الذي تم تأسيسه في عام ١٩٩٤، والمركز العالمي للحوار بين الحضارات في إيران في ١٩٩٨، وبرنامج الدراسات الثقافية وحوار الحضارات بجامعة القاهرة الذي تم تأسيسه في عام ٢٠٠٢[١٢]، *ومركز الحوار بجامعة لا تروب الأسترالية* La Trobe University Centre for Dialogue الذي تم تأسيسه في عام ٢٠٠٦، ووحدة حوار الحضارات بجامعة الملك محمد بن سعود ووحدة حوار الحضارات في مركز الدراسات الإسلامية المعاصرة، التي تم تأسيسها في عام ٢٠٠٧.

وهكذا يمكن التمييز بين مشروعين متمايزين للحوار بين الحضارات؛ الأول مشروع ثقافي والثاني مشروع سياسي. وفي حين يمكن التأريخ للأول بنشر جارورديه لكتاب 'في سبيل الحوار بين الحضارات'، فإنه يمكن التأريخ للثاني بخطاب الرئيس الايراني السابق مُحمَّد خاتمي في الأمم المتحدة في عام ١٩٩٨. وكلا المشروعين رغم

---

١١- يمكن الإطلاع على القرار على موقع الأمم المتحدة على الشبكة الدولية للمعلومات على الرابط التالي:
http://www.unesco.org/dialogue/en/566.pdf

١٢- في يونيو ٢٠٠٢ تأسس *برنامج حوار الحضارات* في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ثم تغير اسمه في يونيو ٢٠٠٦ إلى *برنامج الدراسات الحضارية وحوار الثقافات*

اختلافهما يشتركان في كونهما رد فعل شبه مباشر على ممارسات أو مواقف غربية. فالمشروع الثقافي رد فعل على دعاوى المركزية الأوروبية التي تروِّج لأسطورة أن أوروبا بخاصة والغرب بعامة هي محور تاريخ البشرية وعقل العالم. ومن ثم تتم إزاحة بقية ثقافات البشرية وحضاراتها نحو الهامش التابع، الذي يؤثر ولا يتأثر. أما المشروع السياسي فهو رد فعل مباشر على أسطورة أخرى لا تقل ذيوعا وخطورة هي أن مستقبل العالم القريب سوف تحكمه الصراعات الحضارية بين جبهة الغرب من جهة والكونفوشية والإسلام من الجهة الأخرى.

## ٢ . دور العرب والمسلمين في طرح مبادرة الحوار بين الحضارات وتعزيزها

كلا الداعيين للمشروعين الثقافي والسياسي -أعني جارورديه وخاتمي- ينتميان بدرجة ما إلى حضارة الإسلام وثقافته. لذا فليس من الجرأة القول بأن مشروع الحوار بين الحضارات هو مبادرة إسلامية في المقام الأول[١٣]. ومنذ إيقاد الشرارات الأولى للحوار تعددت الفعاليات التي تصب في خدمة هذا الحوار؛ سواء أكانت مؤتمرات علمية أكاديمية أم ندوات عامة أم لقاءات دبلوماسية أم اتفاقات مشتركة أم منشورات متخصصة وعامة. وتوزعت هذه الأنشطة على أقطار المعمورة من أقصاها إلى أقصاها.

كان للمؤسسات الثقافية العربية والإسلامية دور بارز في إزكاء الحوار بين الحضارات وتدعيمه ومساندته بعد الدعوة إليه، كما كان للمدن والأقطار العربية والإسلامية دور كبير في استضافة العديد من هذه الفعاليات[١٤]. وفي ديباجة تقرير المنظمة الإسلامية للتربية

---

١٣- يرى ويليو زو Weilie Zhu، رئيس معهد الدراسات الشرقية بجامعة شنغهاي للدراسات الدولية بالصين، أن فكرة الحوار بين الحضارات هي فكرة إسلامية مضادة لفكرة صراع الحضارات. انظر، *Dialogue among Civilizations: A Close Look at the Greater Middle East Reform*

١٤- انظر على سبيل المثال الأنشطة الثرية التي تضمنها تقرير المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، الصادر في منتصف عام ٢٠٠٨ عن 'دور المنظمة في تعزيز الحوار بين الحضارات'. ويتضمن

والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) عن أنشطتها في مجال الحوار بين الحضارات تذكر أن اهتمام المنظمة العميق بهذا الحوار يعكس إيمانها القوي بأن الحوار هو أفضل السبل لتحقيق التعايش المشترك بين الشعوب، ولإزالة أسباب سوء التفاهم وتشويه صورة حضاراتها وثقافاتها[١٥].

تجلى اهتمام الإيسيسكو بالحوار بين الحضارات في إصدارها ما بات يُعرف بـــ"**الكتاب الأبيض حول الحوار بين الحضارات**". وهو كتاب يضم مجموعة من الوثائق المتعلقة بالحوار بين الحضارات؛ تشمل القرارات والتوصيات والإعلانات والبرامج التنفيذية المصممة لهذا الغرض، إضافة إلى مشروع الوثيقة العالمية للحوار بين الحضارات، ومشروع منظمة المؤتمر الإسلامي حول الحوار، وتصور المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة للحوار بين الحضارات في دلالاته العميقة وبمفاهيمه الواسعة وأهدافه الإنسانية. ويعد هذا الكتاب سجلا توثيقيا للحوار بين الحضارات، ساهم به العالم الإسلامي في تخليد العام الدولي للحوار بين الحضارات[١٦].

---

التقرير سجلاً لعشرات الأحداث الثقافية والمنشورات والوثائق الاستراتيجية التي تتعلق جميعًا بحوار الحضارات. وقد استضافت عواصم الدول العربية ومدنها الكثير من فعاليات هذه الأنشطة. يمكن قراءة التقرير المنشور بالإنجليزية على الرابط التالي:
www.isesco.org.ma/english/dialogue/Dialogue%20paper%20English%202007.pdf
تاريخ الدخول ٤ أغسطس ٢٠٠٨. كما يمكن الرجوع إلى مقال د. عبد الإله بنعرفة بعنوان: دور المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة في تعزيز الحوار بين الحضارات. ضمن " أوروبا وحوار الثقافات الأورومتوسطية، تحرير نادية مصطفى وعلياء وجدي، ٢٠٠٧، ص ٢١١-٢٢٦. ولصورة أوسع للجهود العربية الإسلامية في الحوار بين الثقافات يمكن الرجوع إلى: ثابت، أحمد. (٢٠٠٤). العرب بين الحوار الثقافي والانعزال. دار الوطنية الجديدة، دمشق، ص٩-٤٢.

١٥- ديباجة الإيسيسكو، ص ١.

١٦- انظر موقع الحوار الإسلامي الياباني، على الرابط الآتي:
http://www.bcsr.gov.bh/BCSR/islamdialogue/web/publicationsarb.html، تاريخ الدخول ٢٠٠٨/٠٨/٠٥.

قد لا يكون من المبالغ فيه القول إن العرب من أكثر الشعوب اهتمامًا بمشروع الحوار بين الحضارات. ونظرة سريعة على حجم الأنشطة الفكرية والثقافية والفنية التي عُقدت من المحيط إلى الخليج كفيلة بالاطمئنان إلى حقيقة ذلك[١٧]. ومما له دلالة على سبيل المثال أن الجلسة التي عقدتها الأمم المتحدة في ٢٠٠٠/١١/١٣ لمناقشة إعلانها عام ٢٠٠١ عامًا للحوار بين الحضارات تكلَّم فيها خمسة عشر مندوبًا يمثلون بلادهم في الأمم المتحدة؛ كان من بينهم ستة مندوبين عرب من مصر والسعودية والعراق والجزائر والإمارات العربية المتحدة واليمن[١٨].

ربما يرجع هذا الاهتمام العربي بالحوار إلى حقيقة أن العرب ربما كانوا أكثر شعوب العالم تضررا من غيابه. فقد أصبح العرب في السنوات الأخيرة مرمى سهام نظرية الصراع بين الحضارات، وتطبيقاتها الممثَّلة في سياسة الغزو الاستعماري الجديدة التي تتجلى بوضوح في احتلال العراق. ولأن هذه الغزوة الاستعمارية الجديدة لا تهدد مصالح العرب فحسب بل تهدد وجودهم أدرك العرب مفكرين وسياسيين أن الحوار أداة هامة لتغيير الصور النمطية السلبية التي تروَّج عنهم، والتي تستند إليها إدارات دول الغرب الاستعمارية الجديدة في الحصول على تأييد شعوبها لقرارات الغزو بواسطة التضليل. والحوار هو الأداة الأساسية التي يمكن من خلالها تفنيد هذه الصور، والكشف عن المرامي الخفية التي تحرك المدافعين عن نظرية الصراع، وإظهار أن المصالح النهائية للشعوب لا يحققها التقاتل بل المصالحة. وأن "مستقبل البشرية يكمن في تصفية الاختلافات بين الشعوب بواسطة الحوار مقام الحروب"[١٩].

---

١٧- انظر على سبيل المثال، تقرير الأيسيسكو عن نشاطاتها في مجال حوار الحضارات، ولاحظ أن معظم هذه الأنشطة حدثت في دول العالم العربي. انظر،
www.isesco.org.ma/english/dialogue/Dialogue%20paper%20English%202007.pdf

١٨- يمكن الاطلاع على ملخص لهذه الكلمات باللغة الإنجليزية، وذلك على موقع الأمم المتحدة الإلكتروني على الرابط التالي: http://www.un.org/News/Press/docs/2000/20001113.ga9818.doc.html، تاريخ الدخول ٢٠٠٨/٠٤/٢١.

١٩- انظر كلمة رئيس أيسلندا الأسبق *Vigdís Finnbogadóttir*، في مؤتمر الحوار بين الحضارات المنعقد في اليابان في ٣١ يوليو ٢٠٠١ على الرابط الآتي http://www.unu.edu/dialogue/papers/finnbogadottir-ks.pdf.

### ٣. الحوار العربي - الغربي: تاريخه، طبيعته، وغاياته

لقد بدأت تباشير الحوار العربي-الأوروبي بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، بعد أن ظهر العرب كقوة اقتصادية وسياسية كبيرة على الساحة الدولية[٢٠]. واقترن هذا الحوار بتغير استراتيجيات التعامل مع الغرب الأوروبي، ورغبة بعض الدول العربية -خاصة مصر- في استبدال الاستراتيجية التي تحكم علاقاتها الخارجية في شكل توثيق للعلاقات السياسية مع دول غرب أوروبا وأمريكا، على حساب العلاقات التي كانت وثيقة مع الاتحاد السوفيتي ودول شرق أوروبا في الخمسينيات والستينيات.

وعلى الرغم من انقضاء عقود طويلة على هذه البداية فإن هذا الحوار بحسب ما يرى البعض لم يؤت أكله؛ وربما كانت عبارة التويجري التالية دالة في هذا السياق؛ إذ يقول: "إن الحوار العربي-الأوروبي في إطاره السياسي والاقتصادي الواسع لم يحقق حتى الآن أي هدف من الأهداف التي حُددت له"[٢١]. وبعد انقضاء ما يقرب من عقد من الزمان على عبارة التويجري فإنها ربما لا تزال صحيحة إلى حد كبير. بل إن الصورة قد ازدادت سوءًا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وغزو العراق؛ فكلاهما دعم تصورات سلبية عن الطرف الآخر. فقد تذرع البعض بأحداث سبتمبر لإلصاق تهمة الإرهاب بالعرب بخاصة والمسلمين بعامة، بينما كان الغزو تجليًا بشعًا لأحد وجوه الغرب القبيحة؛ أعني وجه الغرب الاستعماري الاستغلالي الوحشي.

ومع ذلك فإن الظروف تبدو ممهدة بشدة أمام العرب لاستئناف الحوار مع الغرب وتدعيمه؛ نتيجة للتغيرات الدولية الجذرية التي تحدث في الوقت الراهن، ومن أهمها بداية تشكل عالم متعدد الأقطاب، لا تهيمن عليه قوة واحدة تتخذ من الآلة العسكرية أداة لتحقيق

---

٢٠- انظر، التويجري (١٩٩٨). مرجع سابق، ص ٥٢.

٢١- نفسه، ص ٥٤-٥٥.

مصالحها، بل توجد فيه قوى مختلفة تكاد تكون متقاربة في قوتها، وفي الوقت ذاته تختلف بشكل جذري في فلسفاتها. فقد شهد العقد الأخير بزوغ الصين الشيوعية كقوة عملاقة، واسترداد روسيا لمكانة تكاد تقترب من مكانة الاتحاد السوفيتي قبل انهياره، وأصبحت اقتصاديات دول لها حضاراتها الخاصة كالهند والبرازيل وجنوب إفريقيا أقوى من اقتصاديات دول كفرنسا وإيطاليا. وهو ما يعني أن الحوار بين هذه القوى المتباينة سوف يكون أداة المستقبل للتعايش فيما بينها؛ إذ لم يعد العالم قادرا على دفع تكاليف حرب كونية جديدة. وعلى الصعيد العربي، أدى النمو الاقتصادي المذهل لإمارة دبي، واحتذاء هذا النموذج من قبل دول عربية أخرى، إضافة إلى بعض الأحداث السياسية مثل حرب لبنان في ٢٠٠٦، وما يواجهه الاحتلال الأمريكي للعراق من مقاومة إلى إعادة بعض الاعتبار للعرب كقوة دولية. وهو ما قد يضمن في المستقبل تراجعًا في سياسة الهيمنة لصالح سياسة التحاور. ويُعزز ذلك الانتقادات المتعاظمة للسياسات الاستعمارية التي تفرضها سياسة الصدام بين الحضارات من قِبَل الغربيين أنفسهم، والإدراك المتعاظم بأن أغلب المشكلات التي يواجهها العالم لا يُمكن حلها بدون الحوار.

لا يكفي أن يكون الظرف الدولي ممهدا لكي ينجح مثل هذا الحوار؛ فثمة معارف أساسية لابد من توافرها لدى أطرافه؛ ربما كان من أهمها معرفة أنفسهم ومعرفة من يتحاورون معه، وتحديد أي حوار يرغبون في تحقيقه، وأية أهداف يبتغونها منه. وسوف أقوم بمناقشة هذه المسائل بشكل موجز. وأبدأ بتناول هوية الأطراف المتحاورة؛ أعني العرب والغرب.

### ٣. ١. من العرب؟ ومن الغرب؟ وأيُّ حوار يمكن أن ينشأ بينهما؟

من الضروري تعريف المصطلحات التي سوف نستخدمها على مدار صفحات هذا المقال حتى يتيسر الفهم وتسهل المتابعة. وليس ذلك بالأمر الهين. فبعض المصطلحات

المتخمة بالدلالات والشائعة الاستخدام مثل الغرب والشرق والأنا والآخر أشبه ببقع الروشاخ يرى كل شخص فيها ما يريد، وتعكس من ذات مستخدمها أكثر مما تعكس من جوهر كينونتها. قد يكون ذلك مخيبًا لآمال باحث غايته الضبط الاصطلاحي في بحث يسعى لأن يقدم نفسه بوصفه أكاديميًا، لكن هذا هو واقع الحال. فمصطلح مثل الغرب قد يحمل معنى الدول التي توجد في جهة الغرب من منطلق جغرافي والتي تضم أوروبا وأمريكا. لكن أوروبا ذاتها تنقسم إلى شرقية وغربية. وقد يعني بالغرب أوروبا، لكن هذه الـ'أوروبا' ليست كيانا منسجما لا تاريخيًا ولا ثقافيًا ولا حضاريًا، فهي تضم تركيا وألبانيا والبوسنة المسلمة، والفاتيكان البابوية، وإنجلترا منبت الرأسمالية، وروسيا الشيوعية، وفرنسا الجمهورية وإسبانيا الملكية..إلخ. والغرب كما يقول د/حازم الببلاوي قد يكون خبرة تاريخية كالحروب الصليبية أو الاستعمار، أو نظرية معرفية كالماركسية أو اكتشافًا علميا كالمطبعة والبخار أو غير ذلك[٢٢].

قد يبدو أن تعريف 'العرب' أكثر سهولة. لكن هذا مجرد سراب. قد يكون التعريف الديمو-جغرافي سهلا حين نقول إن العرب هم من يعيشون بين الخليج والمحيط وعددهم كذا مليون نسمة. أما التعريف السياسي فيبدو أكثر سهولة؛ إذ يكفي أن تقول إن الدول العربية هي التي لديها عضوية في جامعة الدول العربية. لكن مثل هذه التعريفات لا تقول

---

٢٢- انظر، الببلاوي، حازم. (١٩٩٩). نحن والغرب: عصر المواجهة أم التلاقي؟ دار الشروق، القاهرة، ص ١٠. وقد أشار إلى أن نورمان ديفيز أورد عشرة تعريفات لأوروبا والغرب في كتابه Europe: A History، الذي نشرته جامعة أكسفورد عام ١٩٩٦. وربما كان من المثير للدهشة أن ديفيز يتحدث في كتابه عن التحيز لأوروبا الغربية وإهمال أوروبا الشرقية عند الحديث عن أوروبا؛ أي أن المفاهيم العشرة تخص إلى حد كبير أوروبا الغربية. ويرى عبد العزيز التويجري أن مفهوم الغرب -في سياق الحوار الحضاري- يجب أن يُنظر إليه بوصفه "منظومة حضارية مترابطة ومتكاملة من القيم والمبادئ والأفكار والمذاهب والسياسات تضج بالحركة وتبحث عن مصالحها وتضعها في مقدمة أولوياتها، وتتعامل مع العالم من منطلق الحرص على هذه المصالح، واستثمارها وتنميتها والحفاظ عليها بكل الوسائل". ومن الواضح أنه يتبنى مفهومًا سياسيًا وليس حضاريًا أو دينيًا للغرب، وهو مفهوم يكاد يتطابق مع مفهوم الاتحاد الأوروبي من حيث هو كيان سياسي. انظر، التويجري، عبد العزيز. (١٩٩٨). الحوار من أجل التعايش، دار الشروق، مصر، ص ٤٨.

لنا شيئا كثيرًا. فالتنوع والتباين خصيصة أساسية للعالم العربي. ونظرة سريعة على عادات وتقاليد وأفكار ولغات عينة عشوائية من اليمنيين والسوريين والإماراتيين والسودانيين والصوماليين والموريتانيين تجعل المرء يقر بواقع التعدد والتغاير. وتجعله يردد بصوت مرتفع عبارة البيلاوي "لا الغرب حقيقة واحدة ولا نحن كذلك"[٢٣]. وعدم الوعي بواقع التعدد والاختلاف، قد يقود إلى مشكلات كبيرة في إطار الحوار بين العرب وغيرهم من الشعوب[٢٤].

إن واقع التباين والتعدد لا ينفي واقع التشارك والوحدة. قد لا يكون للغرب مفهوم واحد لكن ثمة مشتركا بين جميع مفاهيمه تجعله قابلا للتعريف. وقد لا يكون العرب عضوًا واحدًا، لكن من المؤكد أنهم أعضاء في جسد واحد، قابل للتعريف كما هو قادر على التماسك. المشترك بين الغرب قد يكمن في التاريخ والجغرافيا والدين بشكل أساسي. فالغرب يشترك في كونه نتاج لعملية التحديث التي بدأت منذ عصر النهضة، وهو واقع بدرجة أو أخرى جغرافيًا في الشمال من العالم العربي، والمسيحية الدين الرسمي لمعظم أقطاره. كما أنه يشترك في بعض الجذور الفكرية؛ فهو يُعد نفسه امتدادًا للحضارة اليونانية القديمة، ونتاجًا مباشرا لعصر الأنوار والثورة الصناعية في بدايات العصر الحديث. أما المشترك العربي فقد يكمن في اللغة والتاريخ والجغرافيا والدين. فالعربية هي لغة العرب، وتاريخهم مرتبط بشدة منذ ظهور الإسلام، كما أنهم يشكلون كتلة جغرافية ضخمة تكاد تقع على نفس خطوط العرض، والإسلام هو دين الأغلبية في معظم الأقطار العربية[٢٥].

---

٢٣- البيلاوي (١٩٩٩)، مرجع سابق، ص ١٠.

٢٤- أوردت إيلين فيجالي أمثلةً للمشكلات الناتجة عن عدم التحديد الدقيق لمفهوم العرب في سياق الاتصال بين الثقافات المختلفة والثقافة العربية في الدراسة الآتية: Feghali, E. (1997). Arab Cultural Communication Patterns. *International Journal of Intercultural Relations*. Vol 21, No. 3, pp. 345-378, p.349.

٢٥- يرى جبرا إبراهيم جبرا أنه يمكن تعريف العربي بأنه "كل شخص يتحدث العربية ويشعر بأنه عربي"، انظر، Jabra, J. (1971). Arab Language and Culture. In M. Adams (Ed.), *The Middle East: A*

إن المشترك الذي يجمع مفاهيم الغرب، والمشترك الذي يجمع مفاهيم العرب هو شرط للاستمرار في الحوار، وبدونه تسقط الحاجة إليه. فبدون الوعي الناجز بوجود ما يمكن تسميته بالغرب ووجود ما يمكن تسميته بالعرب يصبح البحث في طبيعة الحوار بينهما أمرًا عبثيًا.

في إطار الاتصال بين الحضارات يصبح الاحتواء والشمول أفضل وأهم من الإقصاء والاستبعاد. وانطلاقًا من تلك القاعدة فإن مفهوم الغرب أو العرب الذي سوف يكون عليه مدار حديثي سوف يتسم بالشمول والاستيعاب. وهو يتحدد وفقًا لعنصرين؛ الأول ديمغرافي-جغرافي والثاني زمني. ولابد أن أوضح في البدء أن الغرب في إطار الاتصال ليس إلا البشر، فالرمال والثلوج والمصانع والتكنولوجيا والمتاحف والدبابات لا تستطيع أن تشترك في حوار حضاري. البشر وحدهم هم من يستطيعون ذلك.

الغرب من الناحية الديمو-جغرافية هو البشر الذين يعيشون في قارة أوروبا من أقصاها إلى أقصاها، وفي أمريكا الشمالية وكندا واستراليا في دول يدين أغلب سكانها - ولو بشكل نظري- بدين غير الإسلام. وهو من هذه الناحية يضم ما يقرب من ٢٠% من سكان العالم، يشغلون ثلاث قارات من قارات الدنيا الست المعمورة[٢٦]. هذا العنصر يكتسب أهمية خاصة في سياق الحوار بين العرب والغرب. فهو من ناحية يؤكد أن الغرب ليس هو أوروبا الغربية التي مثلت الاستعمار القديم بل هو أيضًا أستراليا وكندا وروسيا بل وأمريكا وغيرها من الدول التي كانت موضع استعمار لدول أوروبا الغربية ذاتها.

---

*handbook* (pp. 174-178). New York: Praeger. p174، ومشكلة هذا التعريف أنه يستند إلى محدد نفسي هو "الشعور"، وهو محدد لا يمكن التحقق من وجوده بشكل مؤكد، أو قياسه على نحو دقيق.

٢٦- وفقًا لموسوعة ويكيبديا يشكل سكان أوروبا نسبة ١١% من سكان العالم، بينما يشكل سكان أمريكا الشمالية نسبة ٨% وسكان استراليا ونيوزيلندا حوالي ١,٤%، بمجموع ٢٠. ٤% من سكان العالم. انظر، http://en.wikipedia.org/wiki/Continent#Area_and_population، تاريخ الدخول، الثامنة مساء يوم ٢٠٠٨/٠٥/٢٨ بتوقيت جرينتش.

ولغة الغرب ليست هي الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية؛ فهي أيضًا الروسية والبولندية والتشيكية والبرتغالية..إلخ. وديانة الغرب ليست هي المسيحية فحسب؛ فالإسلام واليهودية والبوذية والسيخية وغيرها تنتشر في ربوع هذا الغرب، أما من لا يمارسون دينًا محددًا فهم قطاع لا يستهان به من سكان هذه الدول[٢٧]. وأخيرًا فإن الغرب لا يتكون من أقطار متشابهة من حيث النمو الاقتصادي أو طبيعة نظام الحكم أو الإيديولوجيا المسيطرة.

لابد أن يكون هذا التنوع حاضرًا في الأذهان في سياق التخطيط لحوار ناجع مع الغرب. فالعرب يحتاجون إلى أكثر من سيناريو للحوار. سيناريو يناسب الثقافة الأنجلوسكسونية في إنجلترا وأيرلندا والولايات المتحدة ومعظم كندا واستراليا، وآخر يناسب الفرانكفونية في فرنسا ومقاطعة كيبيك الكندية، وثالث يناسب الثقافة الجرمانية في ألمانيا وسويسرا والنمسا، ورابع يناسب الثقافة الروسية في روسيا وبعض دول الاتحاد السوفيتي الأسبق..إلخ. والعرب يحتاجون كذلك إلى أكثر من لغة، فليس صحيحًا أن الإنجليزية قد غدت لغة الحوار العالمي في العالم، حتى إن كان يتحدثها معظم المشاركين فيه. بل إن استخدام اللغة الوطنية في بعض البلدان -كما هو الحال في فرنسا- يطوي الكثير من المسافات بين المتحاورين.

الغرب من ناحية زمنية هم من يوجدون في الآن واللحظة. ليس الغرب هو الماضي أو المستقبل. فالحوار فعلٌ آني يتغير في كل لحظة؛ تتغير استراتيجياته وأهدافه وأطرافه بل وإمكانيته. وإذا كان من غير الممكن أن نقيم حوارًا مع من قضوا نحبهم فإننا أيضًا غير قادرين على أن نقيم حوارًا مع من لم يولدوا بعد. وإذا كنا بصدد التحاور مع طرف ما فالأفضل أن نتحاور معه هو، وليس مع أسلافه أو أحفاده، الذين لا وجود لهم بأية

---

٢٧- في فرنسا على سبيل المثال تبلغ نسبة المسيحيين وفقًا لبعض التقديرات في عام ٢٠٠٤ ٥٤% من عدد السكان بينما تبلغ نسبة المسلمين حوالي ٤%، واليهود ١%، أما من لا دين لهم فتبلغ نسبتهم ٣١%، و١٠% لديهم أديان ومعتقدات أخرى. انظر: http://en.wikipedia.org/wiki/France#Religion

حال؛ على الأقل في دائرة الاتصال. لكن هذا لا يعني أن نغفل أن من نحاوره في الحاضر هو نتاج بدرجة أو أخرى للأسلاف، كما أنه منتِج بدرجة أو أخرى لأجيال المستقبل، بل يعني فقط أن ندرك أنه لا يمثل الأسلاف أو الأحفاد. والغرب وفق هذا التحديد هو البشر الذين يعيشون في مكان محدد هو قارات أوروبا وأمريكا الشمالية وأستراليا. هذا التحديد مفيد للغاية؛ لأنه سوف يؤثر في صياغة الموضوعات التي يمكن التحاور بشأنها، والغايات التي يسعى الحوار لتحقيقها، ونمط العلاقات الذي قد ينشأ بين المتحاورين، وطبيعة الحجج التي يمكن أن نستخدمها. بصياغة أخرى يمكن القول إن الوعي بماهية الذات وماهية الآخر المتحاوَر معه شرط مسبق لتحديد طبيعة الحوار الذي نستهدفه، وغاياته ووسائله. ومن ثم فإن الخطوة التالية لتحديد طرفي الحوار هي تحديد طبيعة الحوار المستهدف بينهما.

## ٣. ٢. طبيعة الحوار العربي – الغربي

الحوار بين العرب والغربيين هو حوار بين بشر في الأساس. هذا الحوار قد يكون سياسيًا أو ثقافيًا أو رياضيًا..إلخ، فرديًا أو جماعيًا، رسميًا أو غير رسمي، منظمًا أو عفويًا، متصلا أو متقطعًا. وقد يقع في مدرجات الدرس أو على قارعة رصيف قطار، في قاعات ملكية أو في مقاهي شعبية، في مفتتحات الصحف أو بين طيات كتاب أو على شاشة تليفزيونية ملونة. ومن ثم فإننا أمام أنواع مختلفة من الحوار، لكلٍ منها خصائصه وترتيباته وشروطه وأهدافه الخاصة؛ ويمكن تقسيمها بحسب العوامل الآتية:

١- الخلفية المعرفية للأفراد المشاركين وانتماءاتهم الجغرافية أو العرقية أو الدينية: الأفراد المشاركون في الحوار يختلفون بحسب موضوع الحوار؛ فهناك حوارات أكاديمية متخصصة يشارك فيها أهل الخبرة من العلماء والأكاديميين، وأخرى دبلوماسية يشارك فيها رجال السياسة والحكم، وثالثة عامة يشارك فيها أفراد من

عامة الشعوب..إلخ. كما يختلفون بحسب انتماءاتهم الجغرافية أو العرقية أو الدينية فهناك ما يُعرف بالحوار الإسلامي-المسيحي، والحوار العربي-الأوروبي، والحوار بين الشمال والجنوب، والحوار الأورو-متوسطي..إلخ. وعلى الرغم من أن لكلٍ من هذه المشاريع أجندته الخاصة، وسياقه التاريخي الذي نشأ فيه فإن ما يجمعها هو أنها تتقاطع في أكثر من مكان مع الحوار العربي-الغربي.

٢- عدد المشاركين: فهناك حوارات فردية بين-شخصية تدور في فضاءات الحياة اليومية، سواء على الأرض العربية أو الغربية وأخرى جماعية يشترك فيها أفراد شتى.

٣- الإعداد والتنظيم: فهناك حوارات مؤسساتية مجدولة يُعد لها بشكل مسبق، وأخرى عفوية تلقائية تحدث دون ترتيب أو إعداد مسبق.

٤- طبيعة الجماعة المنظمة للحوار: فهناك حوارات رسمية، ترعاها مؤسسات دولية أو حكومية، وأخرى أهلية شعبية ترعاها مؤسسات المجتمع المدني، وثالثة شخصية يقوم بتنظيمها أفراد بجهدهم الخاص.

هذه الأنواع من الحوارات لا يفضُل بعضها بعضًا، ولا يجب أن نهتم بأحدها على حساب الآخرين؛ فلكي يكون الحوار بين العرب والغرب ناجعًا يجب أن يكون شاملاً. ومن ثم فإن أحد التحديات الأساسية التي تواجه الحوار بين العرب والغرب هي نقل هذا الحوار من دائرة النخبة إلى دائرة الجماهير. ولعل هذا كان حافزًا إضافيًا على الاهتمام بدراسة لغة الحوار لكي يمكن توفير معارف دقيقة لكل من يرغب في الانخراط فيه. وفي الواقع فإنني أعوّل على الحوار الفردي بين عرب وغربيين، كوسيلة لإزالة سوء التفاهم والصور النمطية المشوهة لنا كعرب، بأكثر مما أعول على حوارات القاعات المكيفة والاستقبالات الرسمية.

## ٣. ٣. أسس الحوار الأمثل وسماته

على الرغم من التمايزات السابقة يقوم الحوار بين الثقافات على مسلمات منها:

١) الإيمان بالتعددية وقبول الاختلاف بين المتحاورين وما يمثلونه من ثقافات.[٢٨]

٢) الإيمان بعدم إمكانية تطبيق معايير التفاضل والتراتب على الثقافات المختلفة؛ فليس من حق أية ثقافة أن تسم ثقافة أخرى بأنها دونية أو بدائية أو أقل تطورًا أو متدهورة أو متخلفة أو رجعية، على نحو ما شاع في أدبيات الاستشراق الغربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بل والعشرين[٢٩]. فالاختلاف لا يعني الدونية، بل مجرد الاختلاف.

٣) الإيمان بأن الحوار ممكن على الرغم من الاختلاف؛ حتى لو كان جذريًا؛ وقد برهن كارل بوبر بشكل كامل على أن الثقافات والحضارات المتباينة أشد التباين تستطيع أن تتحاور فيما بينها، نافيًا بذلك ما أسماه "أسطورة الإطار"، التي ترى عكس ذلك[٣٠]. تلك الأسطورة التي وجدت أفضل تجلياتها وتطبيقاتها في مفهوم 'صراع الحضارات' الذي يتصارع مع مفهوم 'حوار الحضارات'.

٤) إيمان كل طرف أن الحوار هو اختيار استراتيجي حتى لو كان قادرًا على القضاء على الطرف الآخر بالقوة؛ فالصراع لا ينتهي، وغالبُ اليوم هو مهزوم الغد. أما الحوار فلا غالب فيه ولا مغلوب، بل تعايش وتنسيق واحترام متبادل.

---

٢٨- يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين: "الحوار لا يكون إلا مع التعدد، وإلا يكون حوارًا مع الذات". انظر، شمس الدين، محمد مهدي. (١٩٩٥). ضمن: الحوار سبيل التعايش مع التعدد والاختلاف. دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ص ٥٨.

٢٩- لتحليل شامل لممارسات الاستشراق الغربي يمكن الرجوع إلى مؤلَّفي إدوار سعيد الأساسين: الاستشراق والثقافة والإمبريالية.

٣٠- تقوم أسطورة الإطار على دعوى أن الثقافات التي لا تُوجد بينها أرضية مشتركة لا تستطيع التحاور. انظر تفنيد كارل بوبر لهذه الأسطورة في: بوبر، كارل. أسطورة الإطار: في الدفاع عن العلم والعقلانية. ترجمة يمنى طريف الخولي. نشر عالم المعرفة، الكويت. ص ٥٩-٩٠.

إضافة إلى هذه المسلمات، توجد أسس عامة لابد من توافرها في جميع أنواع الحوار بين الثقافات وأشكاله، حتى يُضمن نجاحها. هذه الأسس كانت محط اهتمام أغلب منظري الحوار بين الثقافات، وغالبًا ما استحوذت على نصيب الأسد من اهتمام دارسيه. وقد حددتها الإيسيسكو في ثلاثة أسس:

١. الاحترام المتبادل
٢. العدل والمساواة
٣. مواجهة التعصب والكراهية[٣١].

هذه الأسس التي تخص العلاقة بين المتحاورين يمكن استكمالها بواسطة السمات التي تتوفر فيما يسميه عالم اللغويات الإنجليزي نورمان فايركلوف 'الحوار الديمقراطي democratic dialogue'، وهي:

٤. "أن بابه مفتوح لأي شخص، وكل المشاركين فيه لديهم حقوق متساوية في الكلام وواجبات متساوية في الاستماع.
٥. أنه حساس للاختلافات، يفسح المجال أمام سماع أصوات المختلفين، ويوجب على الآخرين الاستماع إليهم والاعتراف بهم.
٦. أنه يعطي مساحة لعدم الاتفاق، والاعتراض، والتعدد.
٧. أنه يسمح بنشأة مواقف وهويات ومعارف وتحالفات جديدة.
٨. أنه كلام يؤدي إلى فعل"[٣٢].

السمات السابقة تخص عملية الحوار ونواتجه. وإذا أضفنا إليه الأسس الخاصة بالعلاقة بين المتحاورين يمكن رسم صورة أولية للحوار النموذجي بين العرب والغربيين،

---

٣١- ديباجة الإيسيسكو، ص ٢.

٣٢- انظر، Fairclough, N. (2000). Dialogue in the Public Sphere. In Sarangi, S & Coulthard, M. (Eds.) *Discourse and Social Life*. New York: Longman، p.182.

الذي يعكس علاقات متساوية بين أطرافه، وقوى متساوية بين المشاركين فيه، وغايات نبيلة، وسعي حثيث لأن يتجاوز القول إلى الفعل. وسوف نحاول تفصيل ملامح مثل هذا الحوار، من خلال تمييزه عن غيره من أشكال الاتصال الأخرى. ونبدأ بالتمييز بين الحوار بين الحضارات والحوار بين ثقافات.

### ٣. ٣. ١. الحوار مع الغرب: حوار حضارات أم ثقافات؟

يشرح بيتر كمب Peter Kemp في مقدمة بحثه "نحو حوار للتعلم والنقد" الفرق بين دلالة كلمة 'ثقافة' وكلمة 'حضارة' في اللغات الثلاث الأوسع انتشارًا في الغرب؛ أعني الإنجليزية والفرنسية والألمانية. ففي الاستخدام الألماني توضع كلمة ثقافة Kultur التي تشير إلى الإبداع الفكري والأدبي والفلسفي، في مقابل كلمة حضارة Civilisation التي تشير إلى المنتج العلمي والتكنولوجي. ويتحمس كمب للاستخدام الفرنسي الذي يجعل من الثقافة الجوهر الفلسفي والأخلاقي والجمالي للحضارة؛ لأنه يربط بين المفهومين في مقابل الفصل بينهما في الاستخدام الألماني في الوقت الذي يحافظ على تمايز كل منهما، في مقابل الاستخدام الإنجليزي الذي يتعامل مع الكلمتين بوصفهما مترادفتين[٣٣].

سوف أتبنى المفهوم الآتي للثقافة: "الثقافة هي الطرق المتنوعة لإدراك العالم وتنظيمه التي يتم تبنيها على نحو شائع من قِبَل جماعة بشرية ما، ويتم نقلها بين الأشخاص أو

---

٣٣- أُلقي البحث في المؤتمر الدولي لحوار الحضارات الذي نظمته الأمم المتحدة في مدينة كيوتو اليابانية في شهر أغسطس/آب ٢٠٠١. انظر، Kemp. P. (2001). *Towards a Dialogue of Learning and Criticism.* Paper presented at the International Conference on the Dialogue of Civilizations, United Nations University, Kyoto, 3rd August, 2001، p.1. والبحث منشور على الرابط التالي: http://www.unu.edu/hq/japanese/dialogue/Kemp-e.pdf، تاريخ الدخول ٢٠٠٨/٠٥/٠٢، العاشرة صباحًا بتوقيت جرينتش. وللاطلاع على مناقشة تفصيلية للفرق بين مصطلحات الثقافة والحضارة والمدنية في الاستخدام العربي يمكن الرجوع إلى: عارف، نصر. (١٩٩٤). **الحضارة، الثقافة، المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم**. نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا.

الأجيال"[٣٤]. يتضمن التعريف الجوانب المادية والثقافية لمجتمع ما. والثقافة وفق هذا التعريف ليست حكرا على جماعة دون أخرى؛ فلكل جماعة طريقتها الخاصة في إدراك العالم وتنظيمه. وهي من هذه الزاوية تختلف عن الحضارة التي تشير إلى الفترات 'المزدهرة' في المجتمعات. فنحن -على سبيل المثال- نتكلم عن 'الحضارة' العربية القديمة وعن 'الثقافة' العربية الراهنة. كما أن مصطلح الثقافة أكثر خصوصية من مصطلح الحضارة بحسب ما نستخدمهما. فالحضارة الواحدة قد تنطوي على ثقافات عدة متنوعة؛ فالحضارة الغربية الحديثة تتعايش داخلها ثقافة فرنسية وأخرى ألمانية وثالثة إنجليزية ورابعة أمريكية..إلخ. وعلى الرغم من الاختلاف المفاهيمي بين مصطلحي الحضارة والثقافة، فإنني أستخدمهما في هذا المقال على سبيل التبادل. ويرجع ذلك إلى أن الحوار ممكن وقابل للتحقق على المستويات المادية والمعنوية، وعلى المستويات العامة التي تمثلها الحضارة والمستويات الخاصة التي تمثلها الثقافة. كما أنني أتابع في ذلك معظم الأدبيات التي تستخدم تعبيري 'الحوار بين الثقافات'، و'الحوار بين الحضارات' على سبيل الترادف.

### ٣. ٣. ٢. الحوار مع الغرب: حوار أم جدال؟

الجدال شكل من أشكال الاتصال بين طرفين، يدفع فيه المتجادل الحجة بالحجة؛ بهدف البرهنة على صدق رأيه وصحته، وتفنيد رأي الطرف الآخر والبرهنة على نقصه وخطئه. وعلى الرغم من أن الجدال ينطوي على محادثة لفظية، فإنه توجد فروق جذرية بين الجدال والحوار. يمكن الوقوف على هذه الفروق من خلال استعارتي الرقص والحرب.

---

٣٤- هذا التعريف منقول عن، Hecht, M., Anderson, P., & Ribeau, S. (1989). The Cultural Dimensions of Nonverbal Communication. In 'Asante, M., &Gudykunst, W. (eds.). *Handbook of International and Intercultural Communication*. California: Sage, Pp 163-185.

لقد أثبت جورج لايكوف ومارك جونسون في كتابهما بالغ التأثير "الاستعارات التي نحيا بها" أن الجدال argument يتم التعبير عنه في الثقافة الغربية بواسطة استعارة أساسية هي: الجدال حرب. ففي الثقافة الغربية يتم تصوير العلاقة بين الطرفين المتجادلين بوصفها علاقة بين متحاربين، يحاول كل منهما، 'اكتشاف نقاط الضعف' في رأي مخالفه، و'مهاجمتها'، و'توجيه ضربة قاصمة' لفكرته، و'سحق' حجته، و'دمغها'، و'إبطالها'. وغاية الجدال هو 'الانتصار' على صاحب الرأي المخالف، و'القضاء' على حجته. ومن ثم فإن الجدال في إطار الثقافة الغربية –والثقافة العربية لا تختلف عنها في ذلك– لا يسمح بالتعايش بين الأفكار المتصارعة، ولا يحتمل التسويات. بل ينتهي إما بانتصار أحدهما وهزيمة الآخر، أو بهدنة مؤقتة يحشد خلالها كل طرف 'أسلحة جديدة' حتى يتمكن من 'نسف' فكرة مخالِفِه في أول فرصة للنزال[٣٥]! هذا على الرغم من أن الحوار مع الآخر ليس وسيلةً للانتصار عليه؛ بل وسيلةً لفهمه والتعايش معه.

يرتبط بذلك ضرورة الوعي بأن الحوار العربي–الغربي لابد أن يكون سلميًا؛ أي عاريًا من أي شكل من أشكال العنف. فالحوار كما يعرفه كمب "هو شكل من أشكال الاتصال الخالي من العنف، لأنه يتضمن شريكين لديهما حرية متساوية في قول ما يعتقدان أنه صحيح وحقيقي"[٣٦]. وخلو الحوار من العنف أمر ضروري؛ لأن العنف "يؤذي المعتقدات العميقة للآخر"[٣٧]. ولا يمكن تخيل أن حوارًا يُخالطه العنف يمكن أن يؤتي أكله؛ إذ الحوار والعنف متنابذان، لا يحضر أحدهما إلا غاب الآخر.

---

٣٥– انظر، جورج لايكوف ومارك جونسون. (١٩٨٠). الاستعارات التي نحيا بها. ترجمة عبد المجيد جحفة، نشر دار توبقال، المغرب، ١٩٩٦، ص ٢٢–٢٣.

٣٦– كمب، ٢٠٠١، مرجع سابق، ص ٢.

٣٧– نفسه، نفس الصفحة.

### ٣. ٣. ٣. الحوار مع الغرب: حوار أم محاضرة؟

ليس الحوار العربي-الغربي محاضرة يلقيها طرف على الآخر، بهدف 'تحديثه' أو 'تنويره'. فالحوار بينهما يجب أن يستند إلى الاعتراف المتبادل بالاختلاف، والإدراك المتبادل لحقيقة أن الاختلاف لا يعني أفضلية طرف على طرف، أو علو طرف على الآخر. وربما كان فشل الكثير من الحوارات بين الثقافات راجع إلى التعالي الذي يمارسه بعض ممثلي الثقافة الغربية، ممن يحلو لهم أن يتحدثوا عن ثقافتهم بوصفها ثقافة كونية معيارية؛ يجب على الآخرين احتذاءها وتبنيها، وإلا اعتبرتهم أدنى حضاريًا. هذه المركزية الغربية الثقافية بالغة التأثير على مشروع الحوار بين الثقافات؛ لأنها ضد جوهر فكرة الحوار، من حيث هو محاولة لفهم الاختلاف الثقافي وتقديره والتعايش معه. فإذا ظن أحد أطراف الحوار أنه يمثل ثقافة عليا أو عصرية أو متقدمة، ونعت ثقافة الآخرين بالبدائية أو التدني أو التخلف تلاشى مبرر الحوار وحُكِم عليه بالفشل.

وكما أن الحوار ليس محاضرة 'يُعلِّم' فيها طرفٌ ما طرفًا آخر كيف يقلده أو يحتذي به أو يحاكيه؛ فإن الحوار ليس مجرد تبادلٍ للمعلومات بين أطرافه. ففي إطار الحوار بين الثقافات "لا يُعد تبادل المعلومات الحدث الوحيد ولا حتى الحدث الأهم، على الرغم من أنه لا يمكن أن يحدث مثل هذا الحوار بدون نقل معلومات (..) فحين تتلاقى الثقافات يجب علينا أن لا نتعرف على الحقائق التي تخص الآخر فحسب بل يجب علينا أن نفهم ونفسر معناها الوجودي في الحياة وفي الممارسة (..) وهذا النوع من الحوار وحده هو الذي يمكِّننا من أن نتعلم الحكمة من الآخر"[٣٨].

في كثير من الحالات قد لا تقل أهمية التعريف بالسلب عن التعريف بالإيجاب. فتعريف الحوار العربي-الغربي بأنه ليس جدالا أو محاضرةً يؤدي إلى إجلاء طبيعة

---

٣٨- انظر، كمب، ٢٠٠١، مرجع سابق، ص ٢.

الحوار ذاته، وتحديد علاقته بالأنشطة الاتصالية الأخرى، التي قد تتداخل أو تتشابك معه. وربما كان من الضروري على المنخرطين في الحوار مع الغرب أن يُحددوا بشكل دقيق المفاهيم التي توجد في أذهانهم للحوار، وإعادة صياغة هذه المفاهيم وفق الأهداف التي يسعون لتحقيقها من خلاله. فالحوار بين الثقافات هو في النهاية نشاط شبه نفعي؛ تتحدد طبيعته وفق الغايات المقصودة منه. ومن هنا فإن صياغة أهداف الحوار بوضوح أمر لا مفر منه في سبيل تحقيقها.

### ٣. ٤. أهداف الحوار مع الغرب

الحوار بين العرب والغرب هو حوار بين حضارتين على نحوٍ عميق الجذور، موغل في القدم، ولا ينقصه أسباب الفخر والاعتزاز. لكن الحوار الحضاري لابد أن يقوم على الشعور بنقص ما، فمن يظن أنه كامل في ذاته أبعد ما يكون عن الاتصال مع الآخرين. وقد أدرك روجيه جارودي ببصيرته النافذة أن حديث الغرب مع ذاته قد استمر زمنا كافيًا[٣٩]، وأنه ربما آن الأوان لأن يسمع الآخرين.

إن الحوار بين العرب والغرب لا يجب أن يصب في مصلحة أيٍّ منهما وحده؛ وإلا زال مبرر وجوده. وقد كان جارودي حريصًا على الكشف عما يمكن أن يجنيه الغرب من حواره مع الحضارات الأخرى. وهو يقول في عبارة تكاد تكون مفتاح مشروعه "إن اللاغربيين قد يعينوننا على وعي حدود رؤيتنا للعالم"، ويتمنى "أن يأتي متعاونون من إفريقيا أو آسيا ليكملوا تربيتنا. إننا [يقصد الغربيين] في عدد كبير من النقاط الأساسية متخلفون."[٤٠] لقد كان جارودي مؤمنًا بأن "الحوار يفترض أن يكون كل طرف مقتنعًا بأن ثمة ما يتعلمه من الطرف الآخر". وقد أخذ على عاتقه في كتابه التأسيسي أن يقدم نماذج

---

٣٩- انظر، روجيه جارودي. في سبيل حوار الحضارات. مرجع سابق، ص ١٠٦.

٤٠- نفسه، ص ١٠٧.

لما يمكن أن يتعلمه الغرب من حضارات وأديان العالم وفي القلب منها الحضارة العربية، والدين الإسلامي[٤١].

بدون أن يدرك الغرب أنه يحتاج إلى العرب من أجل مستقبله هو سوف يُكتب على الحوار بينهما أن ينتهي إلى اللاشيء، أو على الأقل أن يستمر في شكل تمثيلية سياسية إعلامية، يتسلى بها مجموعة من البشر الذين يتظاهرون بسماع الآخر بينما هم غارقون في أصداء ذواتهم. وإذا كان هناك ثمة درس يمكن تعلمه من ذلك فهو أن العرب الذين يسعون للحوار مع الغرب لابد أن يُظهروا حقيقة أنهم لا يسعون إليه من أجل مصلحة العرب فقط، بل من أجل مصلحة الغرب أيضًا. ولابد أن توجد قوائم تفصيلية لما يمكن تسميته "الفوائد المشتركة للحوار"، تُعدُّ بشكل دقيق لكي تُطرح قُبيل كل حوار في شكل أهداف وغايات له.

يمكن التمييز بين نوعين من الأهداف التي قد يحققها الحوار بين الثقافات: الأول أهداف عامة؛ لا تخص حوارا بعينه، ولا ترتبط بسياق زماني أو مكاني محدد. والثاني أهداف خاصة؛ يتم صياغتها بحسب ظروف كل حوار. وسوف أركز في هذا المقال على بعض الأهداف العامة التي يشترك فيها جميع أشكال الحوار وأنواعه.

### ٣. ٤. ١. الحوار بين الثقافات بديل للصراع بينها

يرتبط هذا الهدف بالحافز السياسي لمشروع الحوار بين الثقافات. فمشروع الحوار في العقدين الأخيرين يكاد يكون رد فعل مباشر على أطروحة صدام الحضارات. وعلى الرغم من أن واقع الصراع هو المهيمن على خريطة العالم، فإن حُلم إحلال الحوار محله

---

٤١- أفرد جارودي الجزء الأكبر من الفصل الرابع من كتابه الذي جاء تحت عنوان "الأبعاد المطلوبة مجددًا" للحديث عمَّا يمكن أن تمنحه الحضارة العربية والإسلام للغرب. انظر، ص ١٣٨-١٥٥.

لم يمت بعد. فلا زالت هناك أصوات عالية، تحث على وضع الكلمة مكان البندقية. وربما يتحول حلم الحوار إلى واقع من خلال التفنيد العلمي لنظريات الصراع الحضاري من ناحية، والإدراك العلمي للمشكلات التي تجابه تفعيل نظريات الحوار من ناحية أخرى.

### ٣. ٤. ٢. الحوار بديل الهيمنة

بدون الحوار والتفاوض لا سبيل لحل مشكلات العالم إلا بواسطة القوى المادية hard power وفي حين يحفظ الحوار الديمقراطي للأطراف المشاركة فيه استقلالها، ويضمن تحقيق المساواة فيما بينها بغض النظر عن مدى قوتها المادية، فإن الاعتماد على القوى المادية كأداة لتسوية المشكلات يُقسِّم العالم إلى فئتين؛ دول قوية مهيمِنة وأخرى ضعيفة مهيمَنٌ عليها. والأمر ذاته ينطبق على ثقافات العالم وحضاراته؛ فالحوار يؤسس أرضية قائمة على الاحترام المتبادل أما الصراع فيؤدي إلى إقصاء وإزاحة وتهميش ثقافات الدول الأضعف في القوة المادية، لصالح ثقافات الدول الأقوى بغض النظر عن ثراء الثقافة ذاتها. ومن هنا فإن خيار الحوار يبدو خيارًا استراتيجيًا للثقافات الثرية، التي لا تؤازرها قوى مادية تماثل ثراءها الثقافي. وأظن أن الثقافة العربية في السياق التاريخي الراهن إحدى هذه الثقافات. إن الحوار بين الثقافات يُصبح من هذه الزاوية ضماناً لأن تبقى ثقافات العالم حيَّةً، لا تتلاشى لصالح ثقافة واحدة مهيمنة، قد لا تكون بأية حال أثراها أو أرحبها.

### ٣. ٤. ٣. الحوار مع الآخر (الغربي) واكتشاف الذات (العربية)

الآخر مرآة الذات. والحوار مع آخر مختلف بوابة سحرية لمعرفة ذات لا تتكشف بسهولة لنفسها. وقد حفظ لنا التاريخ نماذج من تأثير 'الصدمة' الحضارية التي تؤدي إليها رؤية الذات في مرآة الآخر، وحفظت لنا سجلاته كيف كانت مثل هذه الرؤية بالغة الأثر

في أصحابها. فالمصريون الذين أذهلتهم صورتهم المنعكسة في مرآة الآخر الفرنسي إبَّان الحملة الفرنسية، أصابهم شعور بالهزيمة الحضارية والانكسار الثقافي، ربما لم يبرأوا منه بعد. ورحلات الشوام إلى الغرب في بداية القرن المنصرم تركت بصمات عميقة على وعيهم بثقافتهم وحضارتهم. وربما لا يكون من المبالغ فيه القول إنّ أهم الأعمال العربية التي حاولت رسم جغرافية الشخصية العربية وملامح مجتمعاتها، كانت تراها في مرآة الشخصية الغربية، والأوروبية بخاصة وملامح مجتمعاتها. وبالمثل فإن أهم الأعمال التي حاولت رسم جغرافية الشخصية الأوروبية وملامح مجتمعاتها كانت غايتها تطوير الشخصية العربية ذاتها. هكذا يمكن أن نقرأ سفر الطهطاوي *"تخليص الإبريز في تلخيص باريز"* بوصفه شكلا من أشكال رثاء القاهرة بخاصة، والشرق بعامة. وأن نقرأ سفر محمد عابد الجابري *نقد العقل العربي* بوصفه تنظيرًا لعلل الاختلاف بين العقلية العربية والغربية.

الحوار بين الثقافات لا يؤدي إلى تعريف الآخر بثقافة الذات فحسب، بل تعريف الذات بثقافتها قبل كل شيء. فمن الثابت أن بعض المعارف والخبرات الإنسانية لا تُدرك بشكل عميق إلا من خلال محاولة توصيلها للآخرين. ومن هنا شاعت فكرة أن إدراك المرء لشيء ما يتغير حين يكتب عنه؛ أي حين يحاول نقله للآخرين. وأن فعلي الكتابة والتكلم هما فعلان معرفيان بقدر كونهما فعلين تواصليين[٤٢]. من هذه الزاوية فإن الحوار بين الثقافات يتيح الفرصة أمام استبطان الثقافة العربية لذاتها. وبذلك يصبح الحوار مثريا لكلا طرفيه اللذين يتأمل كل منهما ذاته في مرآة الآخر، فتتعمق معرفته بذاته بقدر ما تتعمق معرفته بالآخر.

---

٤٢- انظر، أفايه، محمد. المتخيل والاتصال: مفارقات العرب والغرب. دار المنتخب العربي، بيروت، ١٩٩٣. الفصل الخاص بالكتابة واللغة الوطنية، ص١٥٤-١٦٢.

## ٣. ٤. ٤. تغيير الصورة الذهنية السلبية Image للعرب

على مدار قرون طويلة تشكلت صورة سلبية للعرب في المُخيلة الغربية. فمنذ انتشار الإسلام في بلاد الشام ومصر التي كانت خاضعة للاحتلال الروماني نشأ خطاب عدائي غربي موجه نحو العرب على وجه خاص، والمسلمين على نحو عام. وقد أزكت حوادث تاريخية مختلفة من شراسة هذا الخطاب وعدائيته؛ مثل قيام حضارة عربية في الأندلس والحروب الصليبية ثم الاستعمار[٤٣]. وتزايدت ضراوة هذا الخطاب وانتشاره؛ خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر.

هذه الصورة تُصاغ باستخدام وسائط جماهيرية متنوعة، مثل الكاريكاتير والأعمال الأدبية والمقالات الأكاديمية وبرامج الترفيه التليفزيوني والأفلام السينمائية والأمثال والكليشيهات وتعريفات القواميس للمداخل اللغوية التي تخص العرب..إلخ. وهي تستهدف المواطن الغربي العادي الذي لا يُتاح له غالبًا الوصول إلى مصادر صورة بديلة أكثر إنصافًا وأقل تحيزًا. هذه الصورة تمثل ذخيرة من المعلومات والمعتقدات التي تؤثر في تأويل هؤلاء الأفراد لأي حدث أو خبر. ويضعنا ذلك أمام أمرين: الأول: أن أي تخطيط لحوار ناجح مع طرف ما، لابد وأن يكون واعيًا بطبيعة الصورة التي لدى هذا الطرف، والعوامل التي شكَّلتها وكيفية تفنيدها دون اتهام هذا الطرف بالجهل أو سوء الطوية بل من خلال الكشف عن مظاهر العوار التي تعتريها، وعن شبكة المصالح التي تستهدف في بعض الأحيان بناءها، ومظاهر التلفيق أو التناقض أو التضليل التي تنطوي عليها في

---

٤٣- قدم انجمار كارلسون –الكاتب والسياسي السويدي- في كتابه المتميز "الإسلام وأوروبا: تعايش أم مجابهة" استعراضًا لملامح الصورة التي يتم صياغتها للعربي في بعض الدوائر الفنية والفكرية بل والأكاديمية. كما أشار إلى بعض الأحداث التاريخية التي أثرت في توجيه هذه الصورة وصياغتها. انظر، كارلسون، انجمار. (١٩٩٤). مرجع سابق، ص١٢-٣٤. وقد قام إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق بتحليل خصائص هذه الصورة وطرق صياغتها. انظر، سعيد، إدوار. الاستشراق. ترجمة كمال أبو ديب، نشر دار الأبحاث البيروتية، ١٩٨١.

بعض الحالات. ثانيًا: أن أحد أهداف الحوار -وربما الهدف الأساس- لابد أن يتجه إلى تصحيح هذه الصورة، واستبدالها بصور أخرى تبرز الجوانب الأكثر إيجابية من الثقافات والمجتمعات المختلفة.

### ٤. في رفض الحوار مع الغرب

منذ ظهور مشروع الحوار بين العرب -والمسلمين- والغرب طُرحت بعض الآراء المعارضة لهذا الحوار والمشكِّكة في جدواه، أو في النوايا الحقيقية للطرف الغربي. ويمكن الوقوف على توجهين أساسين للرفض؛ الأول يستند إلى 'إيديولوجية' دينية، ترى في الغرب شرًا متجسدًا أصيلا لا يُرتجى منه خير، ولا يُحتمل تغيره. ويستشهد أصحاب هذا التوجه بتاريخ طويل من إساءات الغرب للعرب والإسلام والمسلمين[٤٤]، ويرون أن العداوة بين العرب والغرب أبدية لا تنتهي إلا بالقضاء التام على أحد الطرفين، وأنه ليس ثمة مجال للتعايش السلمي الذي يمكن أن يتحقق بواسطة الحوار. ويمكن أن نطلق على هذا التوجه 'الرفض المطلق للحوار'؛ لأنه لا يربط قبول الحوار أو رفضه بمتغيرات خارجية، بل يجعله مُطلقًا ونهائيًا. ولنقرأ على سبيل المثال السطور التي ختم بها محمد مورو مناقشته لمسألة إمكانية التعاون والتحاور مع الغرب: "برغم أننا لا نرفض التعاون مع الحضارة الأوروبية في إطار الاستقلال الحضاري لكل منا، إلا أنه لا التركيبة الحضارية الغربية تسمح بذلك، ولا رأي قادتها فينا وأهدافهم تجاهنا تسمح بذلك، ولا تداعيات التاريخ القديم والحديث تسمح بذلك، وبالتالي لكي نعيش، لكي لا نخضع ونذوب وننتهي لابد من المواجهة. إذن فالمعركة حتمية ولا سبيل هناك إلا المواجهة أو الموت". والعبارة السابقة أشبه بمشروع حرب كونية، لا يقل خطورة وتطرفًا عن مشروع حرب كونية آخر قدمه صمويل هنتنجتون تحت شعار 'صدام الحضارات'.

---

٤٤- انظر على سبيل المثال كتاب محمد مورو، الإسلام وأمريكا حوار أمْ مواجهة؟ نشر دار الدبس، مصر، بدون تاريخ، ص ٨٤.

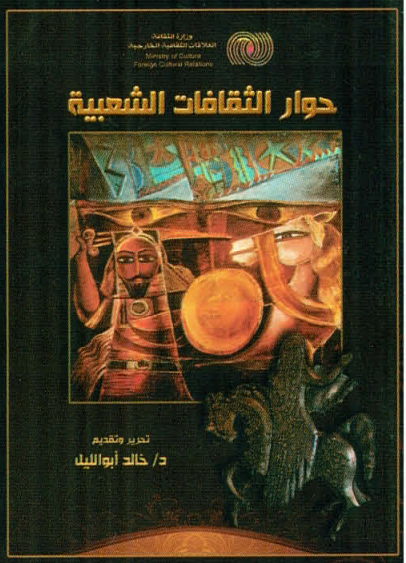


## هذا الكتاب

كثيرًا ما يسعى الفن إلى إصلاح ما تفسده السياسة بين الشعوب. ولما كانت المأثورات الشعبية تعد خزائن الأمم وميراثها، كما تعد – في الوقت نفسه – أحد أشكال الفن، فإنها تسعى إلى تحقيق هذا الهدف الإنساني.

وهذه الدراسة تستهدف إيجاد سبل للتحاور بين الثقافات والشعوب. فلقد تعالت أصوات لمفكرين غربيين وانتهت إلى القول بـ"صدام الحضارات" The Clash of Civilizations و"صراعها".

من هنا تأتي أهمية هذا الكتاب، الذي يقوم بالرد على مثل هذه الدعوات او الادعاءات.

إن المنطلق الأساسي الذي تنطلق منه المأثورات الشعبية هو "تحاور الثقافات الشعبية" و"تقاربها". فبالقدر الذي تعبر فيه المأثورات الأدبية الشعبية عن خصوصيات إقليمية، فإنها – في الوقت نفسه – تؤكد المنطلق الإنساني العام الذي تنطلق منه، وترغب في التأكيد عليه. ولا أدل على ذلك من كثرة الموتيفات والتيمات الشعبية المشتركة بين الثقافات الإنسانية، والتي يتواتر تناقلها - بحرية ومرونة - من ثقافة شعبية إلى أخرى.

هذا إلى جانب الكثير من القيم والموضوعات الإنسانية، التي تحرص هذه الثقافات على ترسيخها في أبنائها، وهي قيم وموضوعات تتجاوز حدود الدين أو العرق أو اللون أو اللغة. وإذا كانت حدود التشابه والمشتركات الثقافية الشعبية أكبر من أن تحصرها دراسة، فإن هذه الدراسات المتنوعة تسعى إلى الإسهام في دراسة هذا التشابه الثقافي فنيا وفكريا وشعبيا.

وزارة الثقافة
العلاقات الثقافية الخارجية
Ministry of Culture
Foreign Cultural Relations